الفصل الرابع

معوقات تنمية الإبداع من منظور إسلامي

obeikandl.com

obeikandl.com

معوقات تنمية لإبداع

كل طفل يولد ولديه قدرات إبداعية كافية تنتظر الفرص الملائمة لتنميتها، وهذه الطاقات لا يمكن تجزئتها وتفتيتها لأن الإنسان وحدة حية نامية لا تنفصل فيها التفكير عن السلوك .." بهذه الكلمات بدأت أسماء غيث (١٩٩٦) مقالها " الإبداع وتعلم اللغات " غير أنها ما لبثت أن وضعت يدها على واقع تربوي أليم ، وصدته بدقة قائلة : لقد ارتبطت طرق التدريس وأساليبه، بل وعملية التعليم بنظريات التعلم .[ ] وقد أفرزت النظرية السلوكية عدة سمات تميزت بها عملية التعليم بصفة عامة ... وأهم هذه السمات :

- اختزال عملية التعليم إلى مجرد مثير واستجابة .
- التركيز على المنتج التعليمي وليس على ما يحدث من تعلم.
- التركيز على أداء وسلوك المتعلم مجرداً أو منفصلاً من عناصر العملية التعليمية .
- الاهتمام الشديد بمهارات التعليم المنفصلة من بعضها البعض والمنفصلة عن باقي عناصر التعلم .
- احتساب المنتج النهائي في التعليم كمجموع لإتقان هذه المهارات الفرعية .. وقد أدى ذلك إلى : اعتبار التفوق في التحصيل وتذكر المعلومات قمة النجاح في عملية التعلم .

وحينما سئل " مراد وهبه (١٩٩٦) عن رؤيته لأزمة الفكر التربوي في مصر ، أجاب بأن للأزمة طرفين متناقضين هما :

"التعليم بالتذكر في مقابل عصر يركز على ضرورة بث روح الإبداع" ... فتحليل الوضع الراهن للتعليم لا يبرز إلا " ثقافة الذاكرة " بمعنى تنمية القدرة على الحفظ لدى الطلاب ... والذاكرة تقوي بتدريب الطلاب على ترديد العلاقات التي تم اكتشافها بين الظواهر الطبيعية والإنسانية في شكل معلومات".

وتؤكد جل الأبحاث التربوية على أن الواقع التعليمي الراهن لا يساعد على تنمية مهارات الإبداع فإن المعلمين بصفة خاصة – لا يستخدمون إلا عدداً محدداً من أوجه النشاط التعليمي ويركزون على عملية تلقين المعلومات للتلاميذ، الأمر الذي أدى إلى إهمال تنمية قدرات التفكير الإبداعي لدى التلاميذ الذين يتسمون بالاستقبال السلبي للمعلومات ، وهذا يتناقض مع ما توصي به التوجهات الحديثة في التدريس وما يقترح كل يوم من استراتيجيات تدريسية حديثة ...

ولا يتوقف الأمر عند حفظ المعلومات واستظهارها طلباً للنجاح والتفوق – إن جاز التعبير – بل يتعداه إلى ما هو أفدح إذ أن هذه المعلومات ذاتها تقدم في قالب متناثر فلا يدرك المتعلم ترابطاً بينها ولا وحدة في مضمونها وتكوينها فمعلمو البرامج الدراسية وخاصة بالمرحلة الجامعية لا يعتمدون على توجيهات دقيقة للمقررات الدراسية بل ينطلقون في إعدادهم من وجهة نظرهم الخاصة فتخرج الكتب الدراسية في ثوب " مهلهل " لا يتناسب وأهمية هذه المرحلة والهدف

منها .... وعليه فإننا يمكننا رصد العوامل التي تقف حجر عثرة أمام تنمية التفكير الإبداعي لدى المتعلمين، وأهم هذه العقبات :[1]

أولاً- العقبات الشخصية، ومنها:

١- ضعف الثقة بالنفس :

غياب الثقة بالنفس أو ضعفها يحرم الفرد من التحلي بروح المخاطرة التي هي أساس الإبداع ويحل بدلاً منها حالة من الخوف من الإخفاق الذي إن سيصر توقفت العملية الإبداعية ولم تتجاوز نقطة البدء . وهكذا فضعف الثقة بالنفس يولد نوعاً من الكمون أو القصور الذاتي للأفراد فيظلون كما هم دون حراك أو رغبة في تحقيق ما هو جديد وأصيل، وتظل أحلامهم وطموحاتهم ضرب من الخيال لا يعرف واقعاً أو تطبيقاً،

وضعف الثقة بالنفس يخالف المبادئ الإسلامية ، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قول موسى عليه السلام " كلا إن معي ربي سيهدين"، وهذا حينما أدرك أتباعه من المؤمنين أن العدو سيدركهم، لكن موسى عليه السلام كان مليئا بالثقة في الله وهي ثقة لا تتبدل ولا تتزعزع، وعبر النبي محمد ﷺ عن هذه الثقة في مواقف عديدة، منها ، ما قاله لأبي بكر الصديق في غار حراء حينما وقف المشركين على باب الغار فاستبد الخوف بأبي بكر : فقال النبي ﷺ مطمئناً له: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ وأيضاً ما قاله عمر بن الخطاب عن حسابه في القبر لما اخبر النبي ﷺ بفتنة الميت في قبره وسؤال منكر ونكير وهما

---

١ راجع في ذلك فتحي عبد الرحمن جروان. (١٩٩٩).
طارق موسى كامل. (٢٠٠٧).

الملكان، فقال : يا رسول الله أيرجع إلي عقلي؟ قال ﷺ نعم. قال عمر : إذن أكفيكهما والله، لإن سألاني سألتهما فأقول لهما: أنا ربي الله فمن ربكما أنتما (القرطبي، ٢٠٠١).[١]

٢ – الميل للمجاراة

تسير التربية العربية – بوجه عام – على هذا المبدأ الذي يقف عائقاً أمام القدرة على التعبير عن الذات وتقديم الجديد في كل المجالات، وهكذا الحال بالنسبة للمتعلمين الذين هم نتاج لهذه الثقافة التابعة والتي لا تخرج إلا أجيالاً من أشباه المتعلمين. فالمتعلم يميل كل الميل إلى ارتداء جلباب معلمه فيتقيد بما يأخذ عنه دون إعمال لعقله الواعي المفكر المحلل الناقد المبدع، وهدفه في ذلك معروف للجميع وهو اجتياز الامتحان التحريري اعتماداً على الذاكرة فقط وإيماناً بأنها الحل الأمثل لهذه المواقف،

وتتعارض سمة الميل للمجاراة مع الذات الايجابية التي ينادي بها الإسلام ويسعى لأن تكون سمة مميزة لأتباعه. وفي حديث النبي ﷺ ما يؤكد ذلك، قال : "لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا"، [٢]

وهكذا فالإسلام ينادي بتحقيق الذات الايجابية لدى المتعلمين وليس من سبيل أفضل من الإبداع للوصول إلى هذه الغاية السامية، فالمعرفة –مثلما يقول

١ القرطبي. التذكرة في أحوال الموتى و أمور الأخرة. طبعة مكتبة الصفا ٢٠٠١.
٢ رواه الترمذي ك البر والصلة باب الإحسان والعفو ٢٠٠٧ وضعفه الألباني.

نبيل علي (٢٠٠٩)- بهجة وتوليد المعرفة الجديدة من خلال الإبداع متعة لا تدانيها متعة.

٣- التسرع في الحل :

والتسرع – كسمة سالبة معوقة – يرتبط بالرغبة الجامحة في الوصول إلى الحل بسرعة ، وهذا ما يدفع المبدع إلى التسليم بأول البدائل أو الحلول التي يصل إليها دون تفنيد أو تدقيق ، ومن ثم القفز إلى مرحلة متأخرة في العملية الإبداعية دون استنفاد المتطلبات المسبقة التي قد تحتاج إلى وقت طويل.

ومثل هذه السمة يتعارض مع ضرورة إتقان العمل التي أكد عليها الإسلام في قوله ﷺ "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"[١]، وإتقان العمل يستلزم التأني في كل مرحلة من المهمة المكلف بها الفرد / المتعلم وأدائها على أكمل وجه، قال ﷺ:"التأني من الله والعجلة من الشيطان"، [٢]

وهكذا فالمتعلم –مثلاً- لا يبدأ الكتابة والتعبير حتى يستوفي واجب القراءة، كما لا يستعجل ثمرة عمله حتى يبلغ درجة من التميز فيما يقدم، وقد روى أن مالكاً (رضي الله عنه) قال: "ما جلست للفتيا والحديث حتى شهد لي سبعون شيخاً أني أهل لذلك" (محمود عبد المتجلي خليفة، ١٩٩٢)،

---

١ رواه الطبراني. ج١ ص ٢٧٥ حديث رقم ٨٩٧ عن عائشة. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١١١٣.
٢ رواه البيهقي في السنن الكبرى ك اداب القاضي باب التثبت في الحكم رقم ٢٠٧٦٧. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٧٩٥ عن أنس بن مالك.

٤- التشبع :

وهو يمثل حالة من الاستغراق الزائد في العموميات والذي قد يؤدي إلى قلة الوعي بحيثيات الوضع الراهن وعدم دقة المشاهدات ... وهذه سمة تتنافى مع المبادئ الإسلامية التي تدعو إلى البحث العميق والاستقصاء الدقيق للمشكلة أو القضية محل البحث والإبداع، قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام:

"قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧)"[1]

٥- التفكير النمطي :

وهو نوع من التفكير قائم على العادة أو مقيد بها ، وهو أحد إفرازات النظرية السلوكية التي صنعت من المتعلمين آلات بشرية تعمل وفق طرق السلوك " المثير – الاستجابة " فطالما أن السلوك قد تم تعزيزه أو قبوله أو حقق نوعاً من الإشباع والرضا لدى صاحبه فهذا السلوك هو الأكثر تكراراً في المواقف المشابهة ...

٦- عدم الحساسية أو الشعور بالعجز :

إذا غابت عن المبدع حساسيته المرهفة للمشكلات ضعفت قدرته الإبداعية وأصبح كغيره من العاديين أكثر ميلاً إلى السكون وانتظار الحلول التي يقدمها إليه غيره ... وهو بذلك يعيش على هامش الحياة بعيداً عن الإبداع الذي هو من أصحابه.

---

١ سورة النمل: ٢٧.

والشعور بالعجز آفة حذر منها النبي ﷺ فقال : "استعن بالله ولا تعجز"، [1] وهكذا ينبغي- بل يجب- على كل مؤمن مبدع أن يستلهم الأمل ويطرد الشعور بالعجز لإيمانه العميق بقوله تعالى:

" إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٨٧)"، [2]

وقال تعالى:

"قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣)"، [3]

ومن المعلوم أن اليأس والقنوط لا مكان لهما في النفوس المؤمنة التي تريد أن تملأ الدنيا إبداعاً أصيلاً وفريداً ، لذا، فقد حرص القرآن الكريم على صحة المؤمن البدنية والعقلية والنفسية والقلبية فقدم الوقاية والعلاج كأسلوب من أساليب المحافظة على النفس البشرية من العلل والأسقام التي قد تصيب الإنسان. ومن المعروف -تربوياً- أن "الإيمان مصدر الأمن النفسي... وأحد أهم وسائل الوقاية من الأمراض النفسية، ومن ثمرات هذا الإيمان أنه يجعل الإنسان لا ييأس ولا يقنط فهو أوسع الناس أملاً وأكثرهم تفاؤلاً، لأن اليأس والتشاؤم لا يجتمعان في قلب مؤمن" (مصطفى رجب، ٢٠٠٨).

---

١ رواه مسلم عن أبي هريرة ك القدر باب الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله٦٩٤٥. عن أبي هريرة عن النبي : المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وان أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان.

٢ سورة يوسف: ٨٧.

٣ سورة الزمر: ٥٣.

٧- عدم احتمال الغموض :

يحتاج التعلم – بوجه عام- إلي صبر ومثابرة حتى يحصل الإنسان العلم. والوصول إلي المهارة والحذاقة يتطلب قدراً كبيراً من الجهد، فالمعرفة لا تؤتى إلا لمن يبذل الجهد والعرق في تحصيلها، فطريقها طويل ودروبها عميقة متشعبة.

وهذا هو الحال أيضاً لأغلب المشكلات الإبداعي، فهي تتطلب نوعاً اكبر من المثابرة والصبر والاحتمال للوصول إلى فك الغموض وطرح الحلول ، وغياب مثل هذه السمات يقود إلى الوقوع في براثن التسرع وعدم التوفيق ومن ثم الفشل في طرح البديل الذي يتسم بالإبداع .

ومن المعلوم أن المبدع المسلم يضع نصب عينيه أن ما يبذله من جهد سيثاب عليه عند الله، فيهون بذلك أمام عينيه كل تعب ونصب، قال تعالى : " ...إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)"[١] كما انه يتخذ من رسوله (ﷺ) قدوة له، فمن المعروف أن النبي (ﷺ) قضى في مكة إحدى عشرة سنة عاني خلالها غربة هائلة مظلمة بين قومه وجيرانه وكافة الجماعات والقبائل المحيطة به، فلا ييأس ولا يضجر ولا يؤثر ذلك على شئ من أنسه بربه عز وجل، "إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل في سبيل الله وحده، هي الثمن والطريق إلى نشأة مد إسلامي زاخر عظيم ينتشر في مشرق العالم وغربه، تتساقط أمامه قوة الروم وتتهاوى بين يديه عظمة فارس، وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات" (محمد سعيد البوطي ، ١٩٩٩)،

---

١ سورة الكهف : ٣٠

ومن المسلّم به لدى الكثيرين ما تميز به الصحابة والتابعون من توافر الهمة وبذل الجهد والتحلي بالصبر، ومثال ذلك ما أورده سعيد إسماعيل علي (١٩٨٧) في مناقشته للآراء التربوية للقاضي عياض، فقال: "تميز كثيرون بالنهم إلى المعرفة، كلما ذاقوا منها طرفاً طمعوا في المزيد ، فقد حكى شعبان ابن عيينة: كان أبي صيرفياً بالكوفة ، فركن الدين فحملنا إلى مكة ، فلما وصل إلى المسجد لصلاة الظهر وصرت إلى باب المسجد ، إذا شيخ على حمار فقال لي : يا غلام أمسك على هذا الحمار حتى أدخل المسجد فأركع فيه ، فقلت : لا والله ما أنا بفاعل حتى تحدثني ، فقال وما تصنع بالحديث ؟ واستصغرني فقال : حدثني بن جابر عبد الله، وأخبرنا ابن عباس ، فحدثني بثمانية أحاديث فأمسكت حماره وجعلت أتحفظ ما حدثني به ، فلما صلى وخرج ، قال : ما نفعك من حدثتك به حبستني ؟ فقلت حدثتني بكذا وحدثتني بكذا ، فرددت عليه جميع ما حدثني به، فقال : بارك الله فيك، تعالى غداً إلى المجلس، فإذا هو " عمر بن دينار "

ثانياً : المعوقات الموقفية :

و تتمثل في العوامل الثقافية والاجتماعية والتعليمية السائدة ومنها:

١- مقاومة التغير :

يحتاج العمل المبدع إلى إرادة للتغيير ورغبة في التطوير ، ولا يتأتى ذلك إلا بالإقرار بضرورة تكوين عقلية ومنهجية تفكير مغايرة للأنماط السائدة .... لأن هذه الأنماط تسير على غير هدى ولا تطبق إلا شعار الجامدين المتجمدين من أصحاب الفكر وذوي الهمم الضعيفة الذين يرضون بأن يكونوا ظلاً لغيرهم وترساً في الآلة التي صنعوها لهم.

٢- عدم التوازن بين الجد والفكاهة :-

يظن البعض – خطأً – أن العمل الإبداعي يخلو من الترويح ولا مكان فيه للتأمل والتخيل والمرح ، وأن هذه الأمور مضيعة للوقت والحق أن العمل الإبداعي يتطلب نوعاً من التوازن والموازنة دون إفراط أو تفريط ...

٣- عدم التوازن بين التنافس والتعاون :

ليس شرطاً أن يتم كل عمل إبداعي في صورة تنافسية، بل قد يثمر التعاون بين فريق من المبدعين إلى إنتاج أكثر أصالة ومرونة وجدة، لكن إذا ساد التنافس غير البناء بين الأفراد قد يصبح عاملاً معوقاً وذلك لاهتمامهم بالشكل والذاتية دون المضمون وتحقيق الهدف العام.

وقد حرص الإسلام على التعاون البناء بين الأفراد والمتعلمين في كل عمل، إبداعياً كان أم لا، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: ....وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ...."[١]

٤- نقص البحوث في مجال الإبداع العلمي :

كان لنقص البحوث التربوية التي تتناول الإبداع في التخصصات المختلفة – في الماضي – أثر كبير في إهمال المعلمين للقدرات الإبداعية لطلابهم والفشل في التعامل معهم ، لكن الأمر تغير كثيراً في السنوات الأخيرة وإن ظل المعلمون – للأسف – غير واعين بما تقدمه هذه الدراسات من نتائج ومضامين تربوية ..

---

١ سورة المائدة : ٢

٥- التدريس التقليدي :

النمط التدريسي السائد في مدارسنا لا ينتج طلاباً مبدعين ، وهذا لوجود آلية ثابتة قوامها التقليد والرضا بالواقع الأليم رغم قناعة الكثيرين بعدم جدوى ما يقدمون .. وتعتمد طرائق التدريس التقليدية على المعلم كمصدر للمعلومة وكمقوم وشارح وكمعد للأنشطة، وتحرم المتعلم من المشاركة الفاعلة الإيجابية التي تصنع منه مبدعا متميزاً،

وقد أدى شيوع التعليم التلقيني- كما يذكر يزيد عيسى السورطي (٢٠٠٩) – إلى جعل فرصة الاهتمام بتنمية التفكير في المؤسسات التربوية والتعليمية ضعيفاً، بل لعل التفكير أو على الأصح تعليم التفكير في مختلف مراحل وأنواع التعليم في البلاد العربية والإسلامية لا يزال ضعيفاً،

ويقول يزيد عيسى السورطي (٢٠٠٩) : "التلقين ، إذن، طريقة تدريس لا تبني شخصية المتعلم، ولا تنمي عقله وتفكيره، بل تضعف إنسانيته وتكاد تلغي كيانه، لأن التلقين كثيراً ما يمارس من خلال علاقة تسلطية: سلطة المعلم لا تناقش،،،"

٦- النمط الإداري البيروقراطي :

ويتمثل في مجموعة من المدراء المقلدين الذين يرون – عن قناعة – أن دورهم في تنفيذ الأوامر الصادرة من رؤسائهم حرفياً ، وهؤلاء لا يهتموا إلا بالأعمال الروتينية، فتوقيع المعلم في دفتر الحضور أهم بكثير من استخدامه لاستراتيجية تدريس حديثة أو إعداده لنشاط تربوي خلاق ... وأمثال هؤلاء ينظرون إلى الإبداع على أنه مضيعة للوقت ولا طائل منه ...

٧- الاهتمام بالكم أكثر من الكيف :

يمثل تكدس المنهج بالمعلومات عبئاً على المعلمين الذين يشعرون بأنهم ملزمون بإنهاء المادة من ألفها إلى يائها ، وفكرة الكم مقابل الكيف تقف عائقاً أمام تدريب الطلاب على تنمية مهاراتهم الإبداعية ...

٨- نمط تصميم المقررات الدراسية :

من المعروف أن تنمية الإبداع تفرض بدورها تصميماً معيناً ممثلاً في أنشطة تربوية تخاطب الحس الإبداعي لدى المتعلمين وتقدم لهم الفرص للتجريب والتحليل والتركيب والإنتاج والابتكار ....

لكن معظم المناهج في جميع الدول العربية والنامية لم تصمم على أساس الإبداع أو الاهتمام به، فهي مناهج تبقي الطالب أسيراً للكتاب المقرر والمدرس الذي يدرس تجعل الطلاب يسيري الانقياد وليني العريكة، وعاجزين عن بناء التفكير أو الحكم المستقل الناقد،

ويرى يزيد عيسى السورطي (٢٠٠٩) أن هذه المناهج "تعود الطالب التفسير الواحد، والرأي الواحد، علماً بأن تلقين الطالب تفسيراً أو رأياً واحداً وإجباره على تبنيه بغض النظر عن صحته أحياناً، هو سمة سلطوية بارزة من سمات عدد من المناهج العربية التي تفتقر إلى الوسائل التي تؤدي إلى تنمية شخصية الطالب بشكل متوازن ومبدع،"

٩- الاتجاهات السالبة لدى معظم المعلمين :

يعرف أحمد حسين اللقاني وعلي أحمد الجمل (٢٠٠٣) الاتجاهات علي أنها "حالة من الاستعداد العقلي تولد تأثيراً دينامياً علي استجابة الفرد تساعده علي اتخاذ القرارات المناسبة سواء أكانت بالرفض أم القبول فيما يتعرض له من مواقف ومشكلات". أي أن الاتجاه يمثل رد الفعل الإيجابي أو السلبي الذي يتبناه الفرد تجاه موقف أو موضوع أو شخص نتيجة لمروره بخبرة أو مجموعة من الخبرات خاصة بهذه العناصر. وقد اجري عدد كبير من الدراسات التربوية التي تقيس اتجاه المتعلمين نحو طرائق وأساليب التدريس المختلفة.

وهناك عدد غير قليل من المعلمين من ذوي الاتجاهات السلبية نحو الإبداع وهؤلاء لا يلقون بالاً إلى الطرق التي يجب عليهم إتباعها لتنمية الإبداع لدى طلابهم .. كما أنهم يعتبرون أن الإبداع قدرة موروثة وأن بيئة التعلم لها أثر قليل في تنمية هذه القدرة.

١٠- المناخ الثقافي العام :

تلعب البيئة دوراً رئيسياً في نمو الإبداع أو قلته وفي المجتمعات العربية يسود نوع من الثقافة الانهزامية .. والاستبداد الفكري الذين عطلا الكثير من العقول عن وظيفتها وشل حركتها ونشاطها وانتهى بها إلى التقليد والاتباعية.